المحاضرة الثامنة

الثقافة العربية ومخاطر التحدي الناعم

اولاً : الثقافة العربية ومخاطر التحدي «الناعم»

إن التحديات الصادرة من الغرب لا تزال قائمة، وإن لم تكن لها الصبغة الدينية القديمة الصارخة منذ بدايات القرن الخامس عشر ميلادي وحت نهاية الربع الأول من القرن العشرين.

مخاطر «القوة الناعمة» فهي عبارة عن اسلوب جديد من التحدي الحضاري، بعد أن أخفق الغرب في تحدياته الدينية والعقائدية والسياسية والعسكرية في تعامله مع العرب وثقافة الاسلام وقيمه والعقائدية والسياسية والعسكرية في تعامله مع العرب وثقافة الاسلام وقيمه.

تتمثل القوة الناعمة في استخدام وتوظيف الافكار الداعمة للسياسات الثقافية التي تحرك الى الامام نحو الفكر العولمة الذي بدأ منذ نهاية القرن العشرين في تصدير لنسق اعلامي لخدمة السوق التجاري / الاستهلاكي، والنظر الى ثقافة في هذا الاطار على انها سلعة او بند من بنود البيع والشراء. وكان على هذه السوق ان تبحث عن مستثمريها ومروجي بضاعتها وعملائها

إن الثقافة الحية والمتجددة المقرونة بالفكر الناضج الواعي تعد العامل الرئيسي والأساسي والمنهج المتكامل لعلاج وحل ما يواجهه الانساني من مشكلات متعددة ومتراكمة عبر التاريخ الطويل.

فإذا كانت الثقافة ضرورية في الحالة الوظيفية الطبيعية لسير حركة المجتمع واستقراره النسبي، فإنها دون ادنى شك تكون بالغة الضرورة والأهمية في مراحل التطور والانطلاق والتغير المقصود التي يمر بها المجتمع وذلك من أجل العمل على إعداد المواطن المستنير الواعي المؤمن بقيم مجتمعه ومثله العليا، والأكثر من ذلك مقدرته على التمسك بها في ضوء إدراكه لمسؤولياته التاريخية

إن الثقافة غالبا ما توضع في حالة المجتمع المتغير، وضع الاختبار والتحدي، حيث يسعى أعضاؤها إلى إرساء وتحديد اتجاهات فكرية جديدة، لا تكون هي الشغل الشاغل للفئة المثقفة أو ممن يطلق عليهم «المثقفون»، وانما هي مرحلة ارساء لجذور الفكر الثقافي المتغير في نفوس وأذهان العامة، بما فيها الطبقات والفئات العاملة بشتى اتجاهاتها، وأنشطتها وذلك من اجل الارتقاء بالكيان الفكري والسلوكي للافراد، وبما يخدم المصلحة الحقيقية للمجتمع سواء على المدى البعيد او القريب.

إن مفهوم هوية الثقافة وذاتيتها قد انتقل غيره من ميدان الدراسات الانثروبولوجية وميدان علم النفس الاجتماعي الى ميدان الدراسات الدبية والفنية لا سيما وان ظهور الانثربولوجيا ونموها جاء مهتما بمفهوم الأصالة والذاتية والهوية لسمات الثقافة ومدى انغلاقها وانتشارها بين الشعوب

ركزت الدراسات الانثروبولوجية على العناية بفلكلور الشعوب والمجتمعات المحلية / التقليدية وكشاهد على الشخصية الأساسية، كما ركزت على العفوية الموجودة للحكايات والاغاني الشعبية

تعتبر الذاتية الثقافية أو الهوية مصدرا لقوة المجتمعات والأمم تكون قيمة الثقافية لا في الانغلاق والانعزال والتقوقع وانما في الاستلاب والهضم بما لا يضعف الأصالة او نفيها

ثانياً : العولمة والثقافة: تقويض ام توظيف

إن العولمة بأساليبها ومبادئها وأهدافها المختلفة وانما تسعى الى تحطيم حواجز الزمان والمكان، والتفنن في القدرة على الاختراق الى حيث توجد أماكن الانغلاق الثقافي القيمي اينما وجدت

فإذا تحقق العولمة هذا فهو إنجاز لها، وإذا لم يتحقق فهو إخفاق لها، ومن ثم عليها معاودة المحاولة تلو المحاولة حتى تصل الى مآربها بشتى الطرق والوسائل، ويبرهن على ذلك ما في العولمة وتاريخها ينبئ مستقبلها بأشياء ونتاجات ثقافية وسلوكية قد لا تصورها عاقل.

إن لكل مجتمع ثقافته الخاصة والتي توصف أحيانا «بالتقليدية» نظرا لشدة خصوصيتها والتي تتشكل من مجمل أساليب الحياة فتتداخل مكوناتها وعناصرها من القيم والرموز والأخلاق والمعتقدات والمفاهيم والأمثال والمعايير والتقاليد والأعراف والعادات والوسائل والمهارات والآداب والتصرفات،.

إضافة الى الابداعات التعبيرية من فن وأدب وموسيقى ورسم ونتاج فكري في مجالات العلوم والفلسفات والمذاهب والايديولوجيات والعقائد والنظريات وكافة ما يشمل السلوكيات الانسانية وموجهاتها

وتتحدد للثقافة وظيفتين رئيسيتين هامتين هما

الأولى:

أن الثقافة بشقيها المادي والمعنوي في أي مجتمع من المجتمعات الانسانية أوجدها الانسان أو اختراعها من أجل حل مشكلاته التي تواجهه هو وأقرانه في الحياة اليومية.

فتساعد من مقدرته في التحكم والسيطرة على كل ما يؤدي الى عرقلة سلوكياته وأفعاله.

الثانية:

هي قدرة الثقافة على الانتقال من جيل إلى جيل آخر بوسائل متعددة:

ولسنا في حاجة الى سرد النتاج الثقافي العالمي ومدى عونه ومساعدته لحل مشكلات الانسان لانه يعتبر سجلا حافلا بالانجازات والكم الهائل من المنتجات الثقافية والذي لا تتردد ثقافة دون اخرى في استخدام منتجه.

والثقافة العربية بطبيعتها التقليدية يساورها دائما هاجس الخوف فتظل على طبيعتها المتسمة بالحذر تجاه استخدام المنتج الثقافي لا سيما إن كان المنتجون له غير عرب.

هكذا يتضح أننا نسعى الى استخلاص ما يميز الثقافة العربيّة في تقليدتها.

وهي ميزة أو خاصية « التردد» والترقب» والحيطة والحذر وهو وصف لم يقف عند حد الثقافة الشعبية في عمومتيها.

إذا كانت العولمة بمنظور الاقتصاد السياسي تعني الكثير في التعجيل بتحطيم حواجز الزمان والمكان أمام التجارة الحرة الطليقة، حرية انوإما العمل على تقويضها وبما يحقق لها أغراض وأهداف التوسع والانتشار، فأن تاريخ وضعية السياسة العربية في المجال والكيان والبنية الاقتصادية العربية يشير الى ان هناك «عثرات» وعراقيل اتسمت بالتردد والحيطة والحذر.

بغض النظر عن طرح أسباب أسباب العرقلة داخلية كانت ام خارجية، فإن الحديث عن وضع استراتجية عربية للتكامل الاقتصادي العربي، والاتفاقيات الثقافية والاقتصادية والجماعية، والتعاون المشترك والتعاون الجزئي والمشروعات المشتركة وصناديق النقد العربية المشتركة وآخرها إقامة السوق العربية المشتركة.

تقلصت فكرة إقامة السوق العربية المشتركة الى التفكير في إقامة»مناطق حرة للتجارة العربية بين بعض البلدان العربية وبعضها البعض، فان كل ذلك يجعل الانسان العربي يرى المشوار طويلا امام العرب وثقافتهم في ان يكونوا «فاعلين» ومشاركين مع «الذات» والآخر» تقال رؤوس الأموال والأفراد، الغاء الحواجز الجمركية والقيود البيروقراطية تنشيط عقم القوانين المحلية.

أن المقومات الموضوعية لقيام السوق العربية المشتركة فيما بين البلدان العربية لم تجهز بعد

هناك بعض المعوقات اهمها:

1- فقدان البنية الأساسية والأولية لقيام السوق العربية المشتركة والتي تتمثل في غياب المنظور العربي تجاه المستقبل الاقتصادي، وبما يحقق آمال وطموحات الدول العربية من خلال تكتل اقتصادي يحمي وضعها من مخاطر التكتلات الاقتصادية الكبرى في العالم.

2- تشابه الانتاج السلعي وتكراره فمن المعروف ان اقتصاديات الأسواق المشتركة ذات الصيغ الكبرى في التعاملات الاقتصادية تتطلب تمايزا بين اقتصاديات الدول المشاركة، وهنا يتم التكامل في ضوء التمايز الانتاجي

ثالثاً : مصادر قوة الثقافة العربية

إن الثقافة قوّة فاعلة من قوى البناء الحضاري في مدلوله الشامل، الفلسفي والأدبي، السياسي والاجتماعي، الاقتصادي والتنموي. والثقافة طاقةٌ للإبداع في شتّى حقول النشاط الإنساني، ثم إن الثقافة البانية الهادفة الفاعلة، لابد وأن تكون في خدمة السياسات التي تتجه نحو ترقية وجدان الإنسان، وتهذيب روحه، وصقل مواهبه، وتوظيف طاقاته وملكاته في البناء والتعمير، والتي تعمل من أجل تحقيق الرقيّ والتقدّم والرخاء والازدهار.

ولا يتأتّى للثقافة أن تمتلك القوة والمناعة، وتنهض بهذه المسؤولية على الوجه المرغوب فيه، إلاّ إذا توفّرت لها ثلاثة شروط تعتبر من مصادر القوة في الثقافة العربية ، ومن أسس النهضة الثقافية، ومن العناصر الأساس لبنية الثقافة العربية :

أولاً : أن تكون الثقافة ذات مرتكزات تستند إليها ومبادئ تقوم عليها، فلا تكون ثقافة منبتّة الجذور، لا هوية لها تُعرف بها، ولا خصائص لديها تميّزها.

ثانياً : أن تكون الثقافة ذات أفق مفتوح ورؤية شاملة، لها قابليةٌ للتفاعل مع الثقافات الأخرى، ولها استعدادٌ كامنٌ في أصولها للتعامل مع الثقافات الإنسانية من هذه المنطلقات.

ثالثاً : أن تكـون الثقافة ذات منحى إنساني تتخطَّى به المجال المحلّي أو الإقليمي، إلى الآفاق العالمية، من دون أن ينال ذلك من خصوصيتها، أو يؤثّر في طبيعتها، فتكون بذلك ثقافة تَوَاصُل بشري، وتَحاوُرٍ إنساني، وثقافة تفاهم يؤدّي إلى التعايش بين الأمم، وثقافة تعاونٍ يحقق التضامن بين الشعوب.

بتوافر هذه الشروط، لا تكتسب الثقافة العربية القوةَ والمناعة فحسب، ولكنها تكتسب إلى ذلك القدرةَ على السموّ والرقيّ، لأن الثقافة القوية القادرة على البناء،

هي تلك الثقافة التي تسمو بالإنسان إلى المقام الأرفع والمكانة الأسمى. وكما يقول البعض فإن حامل الثقافة هو الإنسان، وحامل الحضارة هو المجتمع، ومعنى الثقافة، القوةُ الذاتية، أما الحضارة فهي قوةٌ على الطبيعة عن طريق العلم. إن الثقافة تميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان، أو الحد من درجة إشباعها، وبهذه الطريقة تُوسّع في آفاق الحرية الداخلية للإنسان

وتلك هي القوة الروحية والنفسية والعقلية التي تمكّن الإنسان أن يمارس وظائفه في الحياة على النحو الذي يرضي خالقه أولاً، ثم يرضي نفسه بعد ذلك.

إن إبراز هذه السمات والخصائص التي تنفرد بها الثقافة العربية ، أمرٌ نراه ضرورياً في سياق الحديث عن الثقافة العربية والثقافات الأخرى، سواء أكان القصدُ من هذا الموضوع هو المقارنةَ التي تعنى بيان أوجه الأشباه والنظائر، وكشف نواحي الالتقاء والافتراق، أم رسمَ حدود العلاقة التي يفترض أن تقوم بين الثقافة العربية ، وبين الثقافات الأخرى.

وفي كلتا الحالتين، فإن المنطلقات الأساس في البحث عن مصادر قوّة الثقافة العربية ، وعن خصائصها، ووظائفها، ورسالتها وأهدافها، ومظاهرها، تستند إلى ثلاثة أسس :

الأساس الأول : إن الثقافة العربية في مبادئها وأصولها، وفي مفاهيمها ودلالاتها، تعبّر عن جوهر رسالة الإسلام السمحة، فهي بذلك ثقافةٌ إنسانية بالمعنى العميق، تنفتح على ثقافات الأمم والشعوب، فتتلاقح وتتمازج وتتصاهر معها، وإن مصدر ثرائها وقوتها ومناعتها يكمن في هذه الخاصية التي لا يعرف التاريخُ الثقافيُّ البشري نظيراً لها.

ولقد حدّد المفكّر مالك بن نبي أربع دعائم تقوم عليها الثقافة العربية ، هي :

أ) الدستور الأخلاقي.

ب) الذوق الجمالي.

ج) المنطق العملي.

د) الصناعة أو (التقنية).

والثقافة التي يعرّفها الغربيّون بصورة عامة بأنها (فلسفة الإنسان)، يحدّها مالك بن نبي بالقول إنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمالٍ أَوَّلى في الوسط الذي ولد فيه. أي أنها المحيط الذي يشكّل فيه الفردُ طباعه وشخصيته. وعلى هذا الأساس تكون الثقافة (نظرية في السلوك) أكثر من أن تكون (نظرية في المعرفة). وفي هذا التحديد يكمن الفرق بين الثقافة والعلم، فالثقافة سلوك، أما العلم فمعرفة. والثقافة بهذا المعنى وثيقة الصّلة بالتاريخ وبالتربية، فليس ثمّة تاريخ لأمة بلا ثقافة، والشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتماً تاريخه، إذ هي الوسط الذي تتكوّن فيه خصائص المجتمع التاريخية من عبقرية وتقاليد وأذواق ومشاعر. والثقافة من ناحية ثانية، تنحدر بمضمونها التربوي من حيث إنها دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوّع الاجتماعي.

الأساس الثاني : إن الثقافة العربية ، في عمقها وجوهرها، ثقافةُ تَدَافُعٍ، لا ثقافةُ تَصَارُع، فالتدافع هو سنةُ الحياة، أما التصارع، أو الصراع، فهو مفهومٌ يعود إلى التراث الإغريقي والروماني الذي عرف أساطير صراع الآلهة، ولا يعبّر عن الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية. وهذا أيضاً منبع من منابع القوة والحيوية والقدرة على الحضور في ساحة التنافس الثقافي، لأن التدافع الثقافي مصدرُ قوّة، في حين أن التصارع، أو الصراع الثقافي، يؤدّي إلى إضعاف الذات، والنيل من القدرات والملكات، ويسير في اتجاه معاكس للغايات الإنسانية النبيلة.

وليس عزوف الثقافة العربية الإسلامية عن الصراع، ضعفاً في تركيبتها أو خللاً في عناصرها الأساس، ولكنه عنصرُ تحضّرٍ فيها، وعلامة نضج ووعي، ومظهرُ صحة. ومن المؤكد أن خاصية النزوع نحو التدافع بدلاً عن التصارع، هي التي مكّنت الثقافة العربية من الصمود أمام الأعاصير الثقافية والفكرية والمذهبية التي واجهتها عبر العصور.

الأساس الثالث : إن كثيراً من جوانب الثقافة العربية ، في أوضاعها ومستوياتها الحالية، مع شديد الأسف والأسى، لا تعبّر عن هُوية المجتمع العربي ، لأنها جوانب يعتريها الضعف من كل النواحي، ولأن هناك تفاوتاً ظاهراً بين المنابع وبين البدائع، ونقصد بذلك أن أساس هذه الجوانب ليس مستمداً في مجمله من المنابع الأصلية، وأن هذه الظاهرة هي مصدرُ الضعف العام في الثقافة العربية الإسلامية في المرحلة التاريخية الراهنة.

إن الثقافة العربية هي ثقافة اجتهاد وإبداع مستمرين في إطار الضوابط الشرعية والقيم الخلقية ، وتعبّر عن هوية الأمة. لذلك فإن عطاء هذه الثقافة، عطاءٌ متجدّد بتجدّد الأحوال واختلاف القضايا والأفعال.

ولا ينبغي أن نخدع أنفسنا فنحسب أن الثقافة هي إبداعٌ وابتكارٌ في المقام الأول، وأن قوّة الإبداع تنبع من عقل الإنسان المثقف المبدع ومن خياله ووجدانه، وأن لا صلة لذلك كلّه بالقيم والمقوّمات. إن هذا وَهْمٌ من جملة الأوهام التي تسود حياتنا العقلية وأجواءنا الثقافية. إن الثقافة العربية لن تقوى على مواجهة الأخطار التي تهددها والتحدّيات التي تواجهها، إلاَّ إذا استمدت قوّتها من جذورها وأصولها، ومن قيم الأمة ومقوّماتها. وليس في ذلك أي نوع من الحجر على الإبداع، أو القيد على التفكير والتعبير

في الختام

أن الانسان سواء كان عربيا، أم غير عربي، هو كيان متطور في أصله، وفكره وثقافته وعاداته، وتقاليده وسلوكياته فما اعتبره جيل أنه قيمة أخلاقية، اعتبره جيل آخر غير ذلك، وما نظر اليه شعب على انه مثال ونموذج ، اعتبره شعب آخر مجرد صورة أو شكل ليس الاّ.

نرى ان العصر العولمة هو عصر الاستيعاب والاكتساب والتفاعل لا عصر الانغلاق والانعزال والتوقع على الذات.

إن التأثير العولمي وإنما مجموعة من الأبعاد الفكرية والمادية الموسومة بالتفاعلية والحيوية والمقدرة على اجتياز الحدود الزمانية والمكانية بمنظورات جديدة

ومن الثابت انثربلوجيًا وحضاريًا ان تكوين الجوهر الأساسي للثقافة، إنما ينبع من الأفكار المتوارثة التي يتم تكوينها واختبارها عبر التاريخ وبشكل خاص من القيم المرتبطة بتلك الأفكار والمكونة لمنظومة ثقافية نابعة من انتاج الفعل الانساني وعلاقته بالآخرين .

كانت علاقات الشرق العربي الاسلامي بالغرب المادي قائمة على مجرد مجموعة من المخاوف والهواجس، لا سيما وان الغرب رغم اغراءاته في تصدير ثقافة الاستهلاك- لا يعتبر من وجهة نظر الالماني ماكس فيبر يمثل النموذج المثالي لان الأسس البنائية لحضارة العرب قد لا تتمشى والأسس البنائية لبعض الحضارات ومنها حضارة الشرق الاسلامي المبنية على أسس وثوابت متينة.

مع تجاوز الحدود الزمنية والتاريخية المفروضة من واقع ماضي التجربة الانسانية في العلاقات، ومع ظهور واقع جديد وعالمية جديدة احادية القطب والطرف المتعدد او متعددة الأطراف، أيّا كانت صيغتها،،،،

فإن ثقافة العرب العرب بما لديها من مقومات حضارية ووسائل انتاج وملكات للوعي تجد لزاما عليها، ومن بين مقدراتها –راهنا- عدم الانسحاب من ساحة التفاعل وبنية العلاقات، لأن من ينسحب أو يتقهقر فهو بدون شك هو الخاسر.

والمرحلة القادمة بكلّ مؤشراتها تنبؤ بأن المقاطعة غير مجدية من شأن الاتصال الثقافي والبشري المكثف الذي يحدث الآن في ظل العولمة وعلى هذا النطاق أن يخلق شتى أنواع التوتر والضغوط على النسق الحضاري المحلّي. وعلى القيم والعادات والتقاليد.

انه بدون شك أن نتائج ظاهرة الاتصال الثقافي المكثف تتمثل في تلك الازدواجية أو الانفصام المتزايد بين التقاليد والأعراف التي يقرها المجتمع بصورة علنية، وبين السلوك الشخصي الذي يمارسه الفرد بينه وبين ونفسه.

يصدق ذلك خاصة إذا تم استعراض مظاهر التوتر والضغوط كالجرائم والمشكلات الاجتماعية بشتى انواعها. والخوف هنا يكمن أنه في ظل تسارع الخطى في عصر العولمة من ان يجعل الوعي العربي من نقطة انطلاقه نحو المستقبل وجهة نحو الماضي.

وذلك بغرض استحضار وإعادة بناء ذلك الماضي بالشكل الذي يجعله في خدمة قضيته الذاتية ومهما يكن من أمر، فإن مثل هذه النظرة وهذا الفعل يمثّل حالة «مرضية» ندركها في الواقع المعاش في عجزها الواضح عن تحقيق أكيد وإيجابي لسياسة الحاضر، ومن ثمة فإن فقدان تطبيق أحلامها في عالم الواقع يجعلها تتجه الى الماضي وذكر محاسنه، لا لشيء إلاّ لتوظيفه في تجميل الصورة امام وعي المجتمع.

اسئلة المحاضرة

السؤال الاول:

((لا يتأتّى للثقافة العربية أن تمتلك القوة والمناعة، إلاَّ إذا توفّرت لها شروط تعتبر من أسس النهضة الثقافية))

اشرحى / اشرح العبارة السابقة بالتفصيل